الحياة الرهبانيّة في أيّامنا

مقابلة مع الأب هنري بولاد اليسوعيّ °

أجراها نقولا جيرو اليسوعيّ °°

نقولا جيرو: مَن هو الراهب؟ وما الفائدة أن يكون المرء راهبًا؟

هنري بولاد: إنّ الراهب (أو الراهبة) هو شخص يسعى لأن يعيش في العمق الدعوة التي دُعي إليها كلُّ إنسان. ولا أعتقد بأنّ الراهب هو مَن تلقّى دعوة منفردة. وبهذا المعنى، ليس الراهب أحد سكّان المرّيخ، أو من فئة مستقلّة، أو من الجنس الثالث كما يُقال، بل هو مَن حمل الوصيّة الأولى على محمل الجدّ إلى أقصى حدّ. وهي: «أحبب الربّ إلهك بكلّ قلبك، وكلّ نفسك، وكلّ قوّتك، وكلّ ذهنك». فإنّ الراهب يتمسّك بحرف تلك الوصيّة، الموجّهة إلى كلّ إنسان، ويُلزم بها حياته كلّيا. فجوهر التكرّس الرهبانيّ هو اختيار الله اختيارًا تفضيليًّا.

هذا هو محور الحياة الرهبانيّة في نظري. أمّا الباقي فليس إلّا أمورًا ثانويّة.

ن.ج.: قيل أنّ ذلك الاختيار التفضيليّ هو الذي يدفعه إلى إبراز النذور الرهبانيّة؟

هـ.ب.: طبعًا، ولكنّ النذور ليست سوى إحدى وسائل التعبير

° مدير عام مؤسّسة «كاريتاس» في مصر والشرق الأوسط والبلاد العربيّة. له مؤلّفات فكريّة وروحيّة، منها: الإنسان، ولادة الموت، منطق للثالوث، إله المستحيل، أبعاد الحبّ...

°° راهب فرنسيّ يدرس في جامعة القدّيس يوسف - بيروت - ماجستير في الحقوق، مجاز في الفلسفة.

الممكنة عن ذلك الاختيار التفضيليّ لله. فليست النذور هدفًا في حدّ ذاتها، بل هي مجرّد وسيلة ينبغي أن نخفّف من طابعها المطلق. والهدف الوحيد هو محبّة الله فوق كلّ شيء. وهذا ما تقوم عليه هويّة الراهب.

وكثيرًا ما يتساءل الناس في عصرنا عن مشكلة الهويّة. فإن سُئلتُ عمّا تقوم عليه هويّة الراهب، أجبت: إنّ الراهب (أو الراهبة) هو مَن راهن بحياته كلّها على الربّ. هو مَن كان الله كلَّ شيء له. ووصيّة اللهالأولى، كما عبَّر المسيح عنها في الإنجيل، تشبه أولى الوصايا العشر التي أعطاها الربّ لموسى، وهي: «الله واحد، لا تعبد أحدًا سواه». والعبادة هي أن تجعل من حقيقةٍ ما محورًا لحياتك، وأن تدعها تشغل حيِّز قلبك كلّه. هي أن تقف حياتك لها. فإنّ الراهب هو الشخص الذي نذر حياته لله.

أمّا عن السؤال الثاني الذي طرحتَه في مطلع المقابلة: ما الفائدة أن يكون المرء راهبًا؟، فأجيب: إنّ ذلك لا يأتي بمنفعة، تمامًا كسائر الأمور الجوهريّة في الوجود:

ما المنفعة من الحبّ؟

ما المنفعة من الجمال؟

ما المنفعة من شروق شمس رائع؟

ما المنفعة من قطعة موسيقيّة ساحرة؟

لا شيء.

والراهب، هو أيضًا، لا نفع له. لكنّ هذا لا يعني أنّه لا يفعل شيئًا، وأنّه شخص غير مفيد وكسول. كلّا، ففي وسع الراهب أن يفعل شيئًا وأن يكون مفيدًا، ولكنّ ما يقوم به الراهب ليس إلّا جانبيًّا و ثانويًّا. ليس عمله جوهر دعوته، ذلك بأنّ جوهر دعوته هو على مستوى آخر، هو مستوى الكيان، لا مستوى العمل.

وهناك نصّ فيه توضيح يختصّ بما أعنيه، وهو نصّ الإنجيل الذي ورد فيه ذكر مرتا ومريم. نرى مريم هناك عند قدمَي يسوع، تتأمّله،

وترتوي من كلامه وهي مسرورة بأن تكون معه. ما المنفعة منها؟ لا شيء... إلاّ أن تكون هناك. أمّا مرتا فهي تنفع لشيء، وتفعل شيئًا. وها إنّ يسوع يلومها على ذلك... خطأ، على كلّ حال، لأنّه، لو لم يُعَدّ الطعام، لانزعج... ومع ذلك، فإنّ في الأمر تعليمًا أساسيًّا، لأنّ حضور مريم المجانيّ وإصغاءها كانا أهمّ من الطعام نفسه.

إنّ كثيرًا من الرهبان يقفون على مستوى «الفعل» و «العمل» ويطبّقون على خياتهم مقاييس المردوديّة، في حين أنّ تلك الحياة يجب أن تكون على مستوى مختلف تمامًا: وهو مستوى السجود والحضور المجّانيّ أمام الربّ.

لا شكّ أنّ تلك المجّانيّة في الحضور لا تنفي العمل والالتزام على مختلف أشكاله، ولكن إذا فُقِدت، كان الباقي كلّه «نحاسًا يطنّ أو صنجًا يرنّ» (١قور ١٣/ ١).

ن.ج.: يذكّرني هذا بما قلتَه في كتابك الإنسان وسرّ الزمن من أنّ الأمور الجوهريّة هي تلك التي تكون أكثر مجّانيّة وأقلّ نفعًا. وبهذا المعنى، فإنّ الصلاة أيضًا لا نفع لها.

هـ.ب.: تمامًا! فإن فعل الراهب شيئًا فإنّما ينعله من باب الزيادة. ذلك بأنّ عمله ليس من جوهر دعوته. واليوم، يقسّمون الرهبان إلى «رهبان عمل» و«رهبان مشاهدة». ولكنّي أعتقد بأنّ للمشاهدة الأوّليّة والأفضليّة. إنّ جوهر الحياة الرهبانيّة هو المشاهدة، أمّا العمل فهو إضافة وزيادة وفيض... ويبقى أنّ جوهر كلّ شيء هو تلك العلاقة الشخصيّة مع الربّ.

ن.ج.: قلتَ قبل قليل إنّ النذور ليست سوى وسيلة. فلِمَ يُبرَز مثل تلك النذور؟

هـ.ب.: إنّ النذور هي في الواقع «اختراع» أتت به الكنيسة الغربيّة. وهو اختراع متأخّر في الزمن إلى حدٍّ ما. فمدّة عدّة قرون، لم يبرز الرهبان نذورًا، بل كانوا يعيشون البُعد الذي ما زالت الكنيسة القبطيّة

تمارسه اليوم في مصر: وهو بُعد «الموت والقيامة». كان الراهب الشابّ يتمدَّد على الأرض، ويغطّى بكفن عريض، وكان إخوته يتلون عليه الصلوات الخاصّة بالموتى، إشارةً إلى موته التامّ عن العالم وعن حياته السابقة. وفي ختام تلك المراسم، كان الراهب الشابّ ينهض إنسانًا جديدًا ويحمل اسمًا جديدًا فيبدأ حياة جديدة. فذلك الموت التامّ عن النفس هو الذي يعبرّ عن جوهر التكرّس.

أمّا في الغرب، فقد تجسَّد ذلك في النذور الرهبانيّة الثلاثة. لماذا كان عددها ثلاثة؟ كان من الممكن أن يصل إلى خمسة أو إلى عشرة أو حتّى إلى ثلاثين... فإنّ الرقم ٣ هو رمزيّ أكثر من سواه. ولماذا لا يُبرّز، على سبيل المثال، نذرٌ للتواضع؟ فإنّ التواضع في نظري قد يوازي الفقر أو الطاعة. ولماذا لا يُخصَّص نذر للوداعة، وثانٍ للصبر وثالث للمحبّة، إلى ما هنالك... ليست النذور إذًا سوى تعبير تاريخيّ وثقافيّ عن حقيقة أعمق هي: تكريس النفس وبذلها في عطاء لله، تامّ ومطلق وخاصّ، ونهائيّ. نهائيّ، لأنّ مَن يموت يموت نهائيًّا!... فلا عودة ممكنة إلى الوراء. وبالطبع، يمكننا أن نتوسَّع في شرح كلٍّ من النذور لنرى عمّا يعبّر كلّ نذر على الأخصّ. الفقر، مثلًا، يمكن أن يكون على مستوى «الامتلاك» أو على مستوى «الكيان». فإنّ فقر «الامتلاك» ليس سوى وسيلة ومرحلة للبلوغ إلى فقر «الكيان»، وهو يقوم في الأساس على التجرُّد من «الأنا». هذا ما تقوم عليه المغامرة الكبرى في الحياة الرهبانيّة. وتتلخّص نتيجته في عبارة القدّيس بولس الشهيرة: «فما أنا أحيا بعد ذلك، بل المسيح يحيا فيَّ» (غل ٢/ ٢٠). نحن هنا أمام الفقر الجذريّ على مستوى الكيان الأعمق. أمّا الفقر الخارجيّ فهو نسبيّ إلى حدّ بعيد، وقد يختلف من رهبانيّة إلى رهبانيّة أو من عصر إلى عصر. ولكنّ الجوهريّ يبقى ذلك التجرُّد من النفس، أو، كما قال زُونْدِل: «ذلك التخلّي عن امتلاك النفس». وكلّ فقر آخر يكون مصطنعًا ووهميًّا.

أمّا الطاعة فقد شوَّهها بعضهم في الماضي حتّى إنّهم أتوا بأمور

مستهجنة لا تقرُّها الفطنة. فماذا تعني الطاعة في الواقع؟ تشبه الطاعةُ الفقر في أنّها تهدف، هي أيضًا، إلى التجرُّد التامّ من النفس على مستوى الحرّيّة. ونستعين هنا بمثل يسوع المسيح الذي أسلم نفسه إلى الآب حتّى النهاية («لتكن مشيئتك...»)، ومريم العذراء التي قبلت بإيمانٍ كلامَ الملاك («ليكن لي بحسب قولك»).

ولكنّ الواقع كان مغايرًا في بعض الأحيان، فتعرَّضت الطاعة عبر التاريخ لكثير من الانحراف والتزوير. فكم من شخصيّة سُحِقت في الأديرة، وكم من حياة حُطِّمت، من عاطفة خُنِقت أو جُرِحت باسم الطاعة المقدّسة، حتّى إنّنا لا نستطيع إلّا أنْ نهلِّل لردّة الفعل الحاليّة التي تهدف إلى إعادة نظر شاملة في الطريقة التي فُهِم بها ذلك النذر وموورس. ويمكنني أن أقول في الطاعة ما يُقال في الاعتراف. فقد يكون سرّ التوبة وسيلة تحرير باطنيّ وروحيّ. وقد يكون أداة استعباد وحملٍ على الشعور بالذنب. وتفترض الطاعة الحقيقيّة وجود مقدار كافٍ من الاتّزان، لا من جهّة مَن يطيع فقط، بل من جهة مَن يأمر أيضًا.

وفي ما يختصّ بالعفّة، علينا أن نعترف ونكرِّر أنّها لا تعاش أبدًا بسهولة، كما كانوا يعتقدون في الماضي. ذلك بأنّ الجنس والعاطفة والحبّ البشريّ تؤثّر في جذور الكائن نفسها. وليست العفّة مجرّد مسألة تناسليّة... بل هي أن تقبل الامتناع عن إقامة علاقة خُاصّة مع شريك مفضَّل من الجنس الآخر يستقطب حياتك كلّها.

قد نستطيع أن نقول إنّ نذر العفّة هو «مخالف للطبيعة». ولا يمكن تبرير هذا الطابع المخالف للطبيعة إلّا من وجهة نظر وجود حبٍّ أقوى إلى ما لا نهاية، حبٍّ لا يتخطّى الحبّ الأوّل فقط، بل يبتلعه ويستوعبه.

ن.ج.: نشهد حاليًّا، في نهاية القرن العشرين، مجتمعًا يتّسم بطابع أكثر علمانيّة بكثير من السابق. أفلا تعتقد بأنّ النذور الرهبانيّة ـ ربّما في الغرب أكثر منها في الشرق ـ قد تهمّش الراهب، وتجعله إلى حدّ ما خارج العالم، أو قد تضعه جانبًا على أيّ حال؟

هـ.ب.: لا شكّ أنّ الراهب يطرح مشكلة، وهذا طبيعيّ، لأنّ الراهب ينقطع عن العالم. ويُعتَبَر بُعد «الانقطاع» جزءًا من دعوته النبويّة. فإنّ الراهب نبيٌّ، حتّى وإن صَمت، حتّى وإن لم يتفوّه بكلمة، لأنّ حياته نفسها نبويّة، تنادي، ولا بدّ لها من أن تنادي. والراهب هو تحدٍّ لقوانين الطبيعة. ومن الطبيعيّ ألّا يُفهَم، وأن يثير علامات استفهامٍ وأن يدعو إلى التخطّي.

كلّ شيء يشدّنا بقوّة إلى الأرض... ونحن في باطننا أرضيّون وشهوانيّون وأنانيّون... والرهان على البُعد الآخر الغَيريّ والروحيّ - «روحي» بمعنى الكلمة الإيجابيّ - عمليّة عسيرة على الراهب نفسه، ويصعب فهمها على مَن يراه يعيشها. وبقدر ما يجب أن نتخطّى بعض الصيغ الرهبانيّة القديمة، ولا علاقة لها على الإطلاق بجوهر التكرُّس، يجب التشديد على أنّ الراهب هو، تحديدًا، الشخص الذي ينقطع عن «العالم»...

ن.ج.: مع كونه تمامًا في العالم!

هـ.ب.: طبعًا... مع كونه تمامًا في العالم. لقد كان المسيح أكثر الناس وجودًا في العالم واختلاطًا بمَن هم حوله، ولكنّه ظهر، في الوقت نفسه، آيةً معرَّضة للرفض، علمًا أنّ ذلك أُعلِن منذ ولادته: «جُعِل آيةً معرَّضة للرفض» (لو ٢/ ٣٤). والراهب الذي لا يكون آيةً معرَّضة للرفض، ولا يكون مشكلة، حتّى في داخل جماعته أحيانًا، يوشك ألّا يكون أمينًا على وجه تامّ للإنجيل. ينبغي له أن يُزعج، بطريقة من الطرق. ليس الراهب أمرًا بديهيًّا، وحياته أيضًا ليست أمرًا بديهيًّا... شرط أن تتمّ الأمور في الاتّجاه الصحيح. فليس المقصود أن يكون الراهب مختلفًا عن الآخرين لمجرّد أن يكون مختلفًا عن الآخرين. وليس المقصود هو لعبة أو نوع من العِناد... بل المقصود هو أمر مختلف تمامًا.

الراهب هو «الآخَر»... وهو في الوقت نفسه بشر تمامًا، ولكن

بمعنى الشيء الذي يفوق قدرة البشر. و«هذا الشيء الذي يفوق قدرة البشر» هو التحدّي الموجّه إلى الإنسان العاديّ، لأنّنا سريعو الميل إلى حصر الإنسان في تحديدٍ وفي عالم جاهز، وكأنّنا نستطيع أن نقول ما هو الإنسان وأن نحيط به من جوانبه كلّها.

إنّ الراهب يحطّم، ويخترق الحواجز، ويلغي كلّ تحديد للإنسان. قال پَسكال: «الإنسان يتخطّى الإنسان إلى ما لا نهاية». و«تخطّي» الإنسان هذا هو الذي يميّز الراهب. الراهب يندرج في مرحلة أخرى من مراحل تطوُّر الإنسان. وبإمكاني أن أقول إنّ الراهب هو الكائن المتبدِّل. وهو ينبئ بما سيكون إنسان الغد وبعد غد. وبهذا المعنى، من الطبيعيّ ألّا يُفهَم الراهب. فالحياة هي، بوجه من الوجوه، حجر عثرة. فعلى سبيل المثال، لا يفهم إخواننا المسلمون على الإطلاق لماذا لا يتزوّج الراهب. ويطرحون علينا السؤال التالي: «هل الزواج شرّ؟... - لا، ليس الزواج شرًّا. - «لماذا لا تتزوّج إذًا؟» لأنّني أُعلن، بإيرازي نذر العفّة، أنّ هناك نمطًا آخر من أنماط العلاقة بالمرأة (أو بالرجل)، وأعلن أنّ الصلة بالله لا تحتاج حتمًا إلى أن تمر بعلاقة خاصّة مع أحد الأشخاص من الجنس الآخر. ولكن، هنا أيضًا، لا بدَّ أن نأخذ بعين الاعتبار بعض التوضيحات، لأنّنا في آخر الأمر، كائنات بشريّة، وعدم استخدام الوسائط هو ثمرة مسيرة طويلة.

فحين أتحدّث عن جذريّة الحياة الرهبانيّة، أؤكّد أنّ هناك، منذ البدء، اختيارًا مقصورًا على الله دون استخدام الوسائط. وفي الوقت نفسه، بما أنّ تلك الصلة بالله، التي من شأنها أن تكون «طاهرة»، قد تجرّدنا تجرّدًا تامًا من إنسانيّتنا، وقد تقسّي قلوبنا وعاطفيّتنا، أعتقد بأنّه يجب العودة إلى استخدام الوسائط. غير أنّ ذلك لا يمكن أن يحصل دون التعرّض للأخطار، إلّا بعد اجتياز مرحلة من الجذريّة وعدم استخدام الوسائط. فلا بدّ للإنسان من أن يقفز قفزة أولى، وأن يضحّي بكلّ شيء، فيستطيع من ثمّ أن يعود، طاهرًا ومجرّدًا، إلى ما هو بشريّ. فإنّ

المرور بوساطة البُعد البشريّ لا يأتي إلّا في ختام مرحلة من الانقطاع تبدو لي في غاية الأهمّيّة.

وبتعبير آخر. إنّ صلتي بما هو بشريّ هي صلة فصحيّة، أي أنّها تقوم على أن أعيش التعلُّق بعد المرور بـ «موت» يمكّن من الوصول إلى تعلّق تامّ في تجرُّد تامّ. ويبقى هذا الأمر مستحيلًا، إن لم نمرّ بمرحلة انقطاع وتجرُّد فعليّ. عندئذٍ يمكننا العودة إلى ما هو بشريّ والانغماس فيه بوجه أعمق، بقدر ما نكون قد تعلّمنا كيف نتخطّى كلّ أنانيّة. ليس ذلك سهلًا على الإطلاق ويجب الاحتراس من الأوهام وأنواع التساهل مع الضمير.

يذكّرني هذا الأمر بأسطورة الكهف التي ذكرها أفلاطون. فإنّ الفيلسوف الذي يعود إلى الكهف، لا يعود إليه وهو في وضع يشبه الوضع الذي كان فيه في البداية... ذلك بأنّه رأى العالم، ورأى الشمس، إلخ، وهو يعود إلى الكهف مختلفًا، لأنّه تبدّل. والراهب الذي يعود إلى العالم، ويعيش معه علاقة وثيقة جدًّا، إنّما يعيشها بوجه مختلف كلّ الاختلاف عن تلك التي كان يعيشها في البداية، قبل مرحلة الانقطاع. فإنّ مرحلة الانقطاع هي مرحلة أساسيّة منذ البداية، وتساعد على إقامة علاقة أعمق مع العالم، بقدر ما يكون الانقطاع أكثر شمولًا وجذريّة. وإلّا، فقد تصبح العلاقة مع العالم ملتبسة. ولكن يبقى بعد كلّ ذلك أنّ عمليّة التطهير، أيًّا كان الانقطاع الذي تمّ في البداية، تحتاج إلى معاودة دائمة. فنحن لا نهتدي أبدًا اهتداءً تامًّا... هناك اهتداء جذريّ في البداية، ولكن لا بدّ من معاودته باستمرار ومن مواصلته «بوجه مختلف».

ـ ن.ج.: وهذا «الانقطاع» بالذات هو الذي يمكّن بالتالي أن يُضفي على جميع العلاقات البشريّة كثافة وعمقًا مختلفان تمامًا. أليس ذلك؟

هـ.ب.: بلى. هذا صحيح...! يبقى أنّه ما من خليقة يمكنها أن تُصبح «للمكرَّس» موضوع حياته الخاصّ والشامل، وهذا ما يفسّر عدم إقدامه على الزواج. فهو لا يتزوّج لأنّه اختار الربّ. «الربُّ كأسي وحصّة

ميراثي» (مز ١٦/ ٥)

ن.ج. : إنّ ذلك يعود بنا قليلاً إلى سؤال كنت أرغب أن أطرحه في ختام هذه النقطة الأولى: من خلال حديثك، نشعر فعلاً بأنّ الحياة الرهبانيّة قد تصبح وسيلةً لنموّ الشخصيّة. أرغب أن أعرف فعلاً كيف يمكن في آخر الأمر، لحياة الإنسان أن تتلاشى وللشخصيّة أن تنمو داخل الحياة الرهبانيّة.

هـ.ب. : يعجبني هذا السؤال الحافز. ماذا يعني «الامتلاء»؟.. إنّ كلمة «امتلاء» تفترض وعاءً يُعبّأ حتى الشقّة... والحال أنّ قلب الإنسان وعاء بلا قعر وهوة بلا قعر... من غير المعقول أن نسعى «لملء» قلب الإنسان. وإذا صحّ أنّ الإنسان لا محدود فاللامحدود وحده يستطيع أن يملأه. ففي بداية التكرُّس الرهبانيّ إنّنا قناعة وحدس عميق بأنّه ما من شيء بشريّ يستطيع أن يملأ قلبي:

«لقد خلقتنا لك، يا ربّ،
وسيبقى قلبنا في قلق
إلى أن يستريح فيك» (القدّيس أوغسطينُس).

وإذا كنتُ قد اخترت الحياة الرهبانيّة، فلأنّني عشت ذلك واختبرت عدم اكتفاء عميق أمام كلّ ما هو بشريّ وأرضي. وعندئذٍ، فيمت إلى أيّ حدٍّ يملأ الله قلب الإنسان الذي يهب نفسه له. ولكنّه يملأه بأن لا يملأه...

ن.ج. : أي بأن يوسّع فيه الحفرة... !

هـ.ب. : تمامًا، بأن يوسّع فيه الحفرة... بأن يترك الهوّة فاغرة... إنّه لأمر شاقّ جدًّا، ومطهِّر جدًّا، ولكنّه، في الوقت نفسه، محرِّرٌ جدًّا. لأنّ الراهب يعيش معلَّق الرجل في الهواء، فاغر الفم، ومفتوح القلب، ومفتوح الحياة، يعيش معلّقًا في الفراغ، بين السماء والأرض. كالواقف على شفير الهاوية. وهذا ما قصدته حين قلت إنّ الحياة الرهبانيّة تملأ دون أن تملأ. فبأيّ معنى تملأ وبأيّ معنى لا

تملأ؟... إنّ مثال الراهب ونموذجه الأصليّ وقدوته هي، في نظري، فرنسيس الأسّيزيّ: كان فرنسيس لا يملك... أيّ شيء على الإطلاق، فقد زهد في كلّ شيء وفي نفسه على السواء. وأعتقد بأنّ النشيد الشهير الذي أنشده القدّيس يوحنّا الصليب يصلح أيضًا لأن يوضع على لسان فرنسيس الأسّيزيّ:

«السموات لي، والأرض لي،
والأمم لي، والأبرار لي،
والخاطئون لي، والملائكة لي...
كلّ شيء لي والله لي...»

وهنا أتذكّر أغنية قديمة، وفيها هذه العبارة التي أثّرت فيّ تأثيرًا خاصًا: «لا أملك شيئًا، ومع ذلك أملك كلّ شيء». وفرنسيس الأسّيزيّ كان إنسانًا يملك كلّ شيء لأنّه لا يملك شيئًا. ومَن لا يملك شيئًا، بوجه من الوجوه، يملك كلّ شيء، لأنّ كلّ شيء يوهَب له، ويوهَب له مرّة أخرى، ويعاد إليه، ويضاعَف. هذه هي المائة الضِعف الموعود بها، لا بل ثمّة أكثر من مائة ضعف. بهذا المعنى تملأنا الحياة الرهبانيّة، وتغمرنا وفرة عطاء الله... «لو كنتِ تعرفين عطاء الله! ...» (يو ٤/ ١٠)

وأنا نفسي أختبر ذلك كلّ يوم... فأشعر بأنّ الربّ يملأني ويزيد في ما أنا عليه، في ما أقوم به، في صلاتي، في علاقاتي، في عملي ونشاطاتي. أشعر بشبه طفح، وفيض وتدفّق. ولكنّ هذا لا يدوم إلّا بقدر ما يكون في أساس كلّ ذلك عدم امتلاك وفقر جذريّ ورفض الرغبة في تملّك ذلك الغنى كلّه. فما إن تظهر رغبة في التملّك والسيطرة... حتّى يضيع كلّ شيء وتتوقّف المعجزة. وما إن يصبح الله كائنًا نريد وضع يدنا عليه، حتّى يتحوّل إلى صنم. والصنم هو إله بإمكاننا أن نحيط به، ونحتبسه، ونمتلكه، ونحصره. وينطبق قولي هذا أيضًا على الحبّ، والحرّيّة، والسعادة، والحياة...

ما إن نضع يدنا على الحبّ، حتّى لا يعود الحبُّ حبًّا،

وما إن نضع يدنا على الحرّيّة، حتّى لا تعود الحرّيّة حرّيّةً،
وما إن نضع يدنا على السعادة، حتّى لا تعود السعادة سعادةً،
وما إن نضع يدنا على الحياة، حتّى لا تعود الحياة حياةً،
وما إن نضع يدنا على الآخر، حتّى لا يعود الآخر آخرَ...

فكلُّ حقيقة نريد أن نمتلكها، تختفي وتزول... الراهب هو مَن يرفض أن «يضع يده» وأن «يمتلك»... وهذا ما يعود بنا إلى موقف الفقر الأساسيّ، وقد أشرتُ إليه سابقًا. وهذا الفقر هو الذي يمكّن المكرَّس أن يكون ممتلئًا باستمرار، شرط ألّا يُغلقَ يدَيه أبدًا، وألّا يطبق ذراعيه أبدًا على ما يملكه. فإنّ المكرَّس هو مَن يقبل أن يكون «قناة نعمة»، و«قناة حياة»، و«قناة حبّ»... تجري الحياة عبرها وتتسرَّب...

ويجتاز الراهبَ شيءٌ أكبر منه وشخصٌ أكبر منه ولكن، لكي يصير مَعبرًا، عليه أن يفرِّغ نفسَه كلّيًا وأن يصبح فقيرًا تمامًا. والسبيل الوحيد إلى أن يمتلئ الإنسان هو أن يصير «قناة». فإنّ الإنسان لا يمتلئ كما يمتلئ الوعاء. بل يمتلئ كمجرى النهر الذي يمرّ فيه، والذي ينبع من مكان آخر ليصبّ في مكان آخر... ليس المكرَّس سوى نقطة عبور.

أحيانًا، أسمع الناس يقولون إنّ الحياة الرهبانيّة لا تنمّي الشخصيّة لأنّها مبنيّة على الزهد. فأريد هنا أن أوضّح مفهوم تلكَ الكلمة. فإذا كان الراهب يعيش الزهد وكأنّه حرمان، فمن الطبيعيّ ألّا تنمو شخصيّته. والزهد الذي لم يُرِدْه، ولم يختره بدون تحفُّظ، ولم يتبنَّه في العمق، لا يمكن أن يكون مصدر نموّ لشخصيّته.

وهناك طريقة معيّنة لعيش العفّة قد تكبَح وتكبِت وتشلّ وتُفقر. وهنا عليّ أن أتساءل: «هل إنّ نذوري وتكرّسي هي وسيلة تساعدني على أن أعيش حبًّا أقوى وأكبر وأعمق ممّا هو... في الزواج، أم إنّها توقف نموّ قدراتي العاطفيّة والعلائقيّة؟... هل أنقصَني تكرُّسي أم زادني؟...» إن أنقصَني وأضعف قدرتي على الحبّ، فمعنى ذلك أنّني أخطأتُ الطريق وانحرفت. وليس عليّ إذًا أن أواصل طريقي في

الحياة الرهبانيّة، بل في عكسها. ليس هناك إلّا دعوة واحدة للإنسان: وهي أن يحبّ. وبين الحياة الرهبانيّة والحياة الزوجيّة تختلف الوسائل، ولكنّ الهدف يبقى هو هو: تنمية قدراتي على الحبّ إلى أقصى حدّ.

إن كنت أحتاج إلى وساطة المرأة (أو الرجل) لكي أحقّق هذا الهدف، يجب عليّ أن أتزوّج.

ولكن إن شعرت، على عكس ذلك، بأنّ العلاقة الخاصّة بالمرأة (أو الرجل) وتأسيس بيت وعائلة سيحولان دون الوصول إلى ملء الحبّ، بدل أن يكونا وسيلة له، فعليّ أن أتخلّى عنهما. والدليل على صدقي سيكون قدرتي على أن أهب «ملئي»، وعلى أن أحبّ من كلّ قلبي وعلى أن أكون سعيدًا من جرّاء هبة نفسي إلى أقصى حدّ. والنموّ الذي ألقاه حينئذٍ لا يكون سوى صدى ونتيجة وردّ فعل، في شخصيّتي كلّها، لذلك الحبّ الذي أعيشه في أعماق نفسي.

إنّ نموّ الشخصيّة ليس هو لعبةً نلعبها. فإمّا أن تكون شخصيّتنا نامية في العمق وإمّا أن لا تكون. وحين تكون نامية، فسرعان ما يلاحَظ ذلك، ويشعّ، ويتفجّر، دون أن يحتاج إلى أيّ برهان. فبقدر ما يشعّ الراهب الفرح والسلام والحبّ، وبقدر ما يشعر بارتياح نفسيّ وجسديّ، وبقدر ما يكون سعيدًا في حياته، يمكننا أن نؤكّد تأكيدًا قاطعًا أنّه وجد طريقه وأنّ تكرُّسه بلغ هدفه، وهو أن يساعده على أن يكون نفسه إلى أقصى حدّ، وأن يحقّق نفسَه.

لقد ذكرت سابقًا أنّ تحقيق النفس هو فصحيّ، أي إنّه يمرّ بالموت، الموت الجذريّ الذي هو في الوقت نفسه موت يتبنّاه الإنسان ويريده ويختاره. ولأنّه موت متبنًّى، فهو يفقد طابعه المخيف أو المؤذي. تعجبني كلمة «متبنًّى» لأنّها تفترض اختيارًا واعيًا ومقصودًا تمامًا، بعيدًا من كلّ إكراه وضغط وتابو.

ن.ج.: إنّ الحياة الرهبانيّة، أخيرًا، هي دعوة إلى الحبّ، والحبّ هو فقر كبيرٌ جدًّا!

١٥/١٦)، أراد أن يعبِّر، على ما أظنّ، عن حقيقة أساسيّة. فلست أنا مَن يختار المسيح، بل المسيح هو الذي يقبض عليّ. وعلى كلّ حال، سبق للقدّيس بولس أن قال مثل هذا القول: «فقد قبض عليّ يسوع المسيح» (فل ٣/ ١٢). لقد «أمسيكتُ»، و«قُبِضَ عليّ»... والله وضع يده عليّ فعلاً. طبعًا، كان بوسعي أن أرفض! وهنا يأتي دور الاختيار. يمكن الإنسان أن يرفض تلبية النداء، ولكنّه يظلّ الشخص الذي لا يتّخذ المبادرة: إنّه مدعوّ... يمكنه أن يقول «نعم» وأن يقول «لا»... ولكنّ اختياره ليس سوى تلبية لنداء يفوقه. وكلمة «نداء» هي في منتهى الأهمّيّة. فليست الدعوة «اختيارًا» أو «قرارًا» نتّخذه بعد تفكير في دوافعنا العميقة...، بل هي «تلبية نداء». والنداء يصدر من جهة أعمق منّي، فلست أنا مَن يقوم بالمبادرة، لأنّ المبادرة تصدر عن الله الذي يدعو. حينئذٍ، لي الخيار في أن أقول «نعم» أو «كلاّ». وليس المقصود خطوةً أُقدِم عليها من تلقاء نفسي، بل «ردّي» على الخطوة الإلهيّة. وهنا يحقّ لي أن أقول: «إنّ الدعوة هي نعمة»

ن.ج.: ولكن، كيف نتوصّل إلى اكتشاف صحّة الدعوة؟ فإن قدم أحدهم إليك، مثلاً، وقال إنّهُ يريد أن يصير راهبًا، فكيف تعرف أنّ ما يشعر به صادر، في نهاية الأمر، عن أعمق جهة فيه؟ وكيف تعرف أنّ الله هو الذي اتّخذ المبادرة فعلاً؟

هـ.ب.: إنّ قِدَم الدعوة وتجذّرها في الماضي وفي الطفولة قد يكونان عاملاً يثبّت صحّة الدعوة. وهناك عنصر آخر هو قدرة المرشَّح على عيش الزهد بالنفس. هل كان قادرًا على عيش الزهد بنفسه تجاهًا وعلى الخدمة في السنوات الماضية؟ لأنّ الدعوة قد تكون مجرّد اندفاع عفويّ، وإرادة عابرة، واندفاع تصوّفي موقّت، ونار من قشّ... أمّا إن عرف الشابّ أن يبذل نفسه لعدّة سنوات وأن يتفانى في سبيل الآخرين، فقد يكون خطوته أساس متين وجدّيّ.

وهذا ما يشبه قليلاً ما أقوله لفتاة تسألني عن رأيي في شابّ تحبّه. يكون جوابي على النحو التالي: هل كان صديقكِ قاتمًا للكشّافة؟ هل زار

الفقراء؟ هل كان عضوًا في جمعيّة خيريّة أو حركة رسوليّة؟ هل قصد القرى الفقيرة ليشارك في معسكرات عمل؟... إن كان الردّ إيجابيًّا، فهذا يعني أنّ لكلمة «حبّ» عنده معنًى واضحًا للغاية. أمّا إن كان متبجّحًا أنانيًّا يغالي في الإعلان عن حبّه، فيداخلني الشكّ وأطرح علامات استفهام كثيرة.. فإنّ ماضي الإنسان ونمط حياته والطريقة التي عاش بها حتّى اليوم هي دلالات قيّمة تساعد على تمييز الدعوة. وإلى جانب مسألتَي القِدَم وبذل النفس اللتين تحدّثت عنهما، هناك مسألة الطبع. فإلى أيّ حدٍّ يمكّن المرشَّحَ طبعُه أن يعيش حياته الرهبانيّة دون مشاكل تذكر؟ ولا أقصد بذلك أن يكون المرشَّح مجرَّدًا من طباعه... بل على عكس ذلك، إذ ليس الراهب (أو الراهبة) إنسانًا جبانًا أو ضعيف الشخصيّة، ولكنّ المقصود هو أن نعرف إلى أيّ مدى يستطيع ذلك الشابّ (أو الشابّة) أن يسيطر على نفسه ويوجّه طاقاته وميولَه.

وعلى سبيل المثال، يقول الطبيب والأديب الفرنسيّ ألكسي كارِل إنّه من الواضح أنّ القدّيسين الكبار كانوا أشخاصًا أقوياء الجنس. وبناء على ذلك فإنّ غياب الميول الجنسيّة ليس على الإطلاق علامةً دعوةً إلى التبتُّل. فإنّ الحياة الرهبانيّة تفترض، على العكس، وجود حياةً عاطفيّة وجنسيّة قويّة، وفي الوقت نفسه، وجود قدرةٍ على ضبطها، تمَّ اكتسابها إلى حدّ بعيد. هذا لا يعني أن يكون الشابّ (أو الشابّة) قد بلغ القِمّة، بل أن يُظهِر علامات تكشف عن إرادته وقدرته على ضبط النفس.

وإلى جانب قدرة المرشَّح على ضبط حياته الجنسيّة والعاطفيّة، هناك قدرته على تخطّي عناده وعزّة نفسه وكبريائه الموروثة، ورغبتُه الحقيقيّة في اتّباع المسيح الفقير والمتواضع والمطيع. وهناك أخيرًا نقطة أساسيّة أيضًا: وهي بُعد الدعوة التصوُّفي. فمن دون هذا البُعد، ليس هناك دعوة حقيقيّة، لأنّ الدعوة قد تتحوّل سريعًا إلى الشكليّة: كالأمانة حتّى الوسواس للنذور والقانون والنظام... ولكنّ ذلك كلّه ليس بشيء ولا يعني شيئًا، إن لم يكن هناك «أمانة» للنفحة التي تحمل كلّ ذلك والتي

هي الأساس. إنّ الدعوة تفترض وجود حبّ في أساسها. . . حبّ متّقد للمسيح الذي يحمل كلّ شيء ويجرفه في تيّاره. فإن غابت تلك النفحة التصوّفيّة، تلك العلاقة، الشخصيّة إلى أقصى حدّ مع الله، ومع المسيح، فلا تعود الحياة الرهبانيّة حياةً رهبانيّةً، بل تصبح رتابة وشكليّة، ونزعة مهنيّة، ونشاطيّة، وإلى ما هنالك.

ن.ج.: . . . فتفسد الحياة الرهبانيّة!

هـ.ب: تمامًا، ولدينا، ويالأسف، أمثلة كثيرة على ذلك! . . .

ن.ج.: لذا، يبدو لي أنّه، بقدر ما تظلّ تلك النفحة حاضرة، يمكن تجنّب النزعة المهنيّة. فإنّنا نرى رهبانًا كثيرين يركضون شمالاً ويمينًا. ويحملوننا على الشعور بأنّنا أمام أشخاص هم رجال أعمال أكثر منهم رهبانًا.

هـ.ب: ولهذا فلا بدّ للحياة الرهبانيّة من أن ترتوي يوميًّا من المواجهة مع الله والحوار مع المسيح، وهو ما ندعوه الصلاة.

ن.ج.: هذا ما يحملنا على طرح السؤال التالي: ما هو دور الصلاة في الحياة الرهبانيّة؟

هـ.ب.: إنّه دور مركزيّ! لأنّ النفحة التصوّفيّة التي تحدّثتُ عنها قبل قليل لا تكون حاضرةً في انطلاقة الدعوة فقط، بل تحضنها في كلّ مسيرتها وفي شتّى مراحلها. إنّ الراهب الذي لا يصلّي. . . ليس براهب. وكما ذكرت سابقًا إنّ الحياة الرهبانيّة لا تكون على مستوى «الفعل» أو «العمل»، بل على مستوى «الكيان العميق»، وأنّ الراهب في الحقيقة لا نفع له، كذلك أقول الآن إنّ الصلاة، هي أيضًا، لا نفع ليا. فنحن لا نصلّي لكي نحصل على النِعَم أو ليتحسّن أداؤنا الرسوليّ، بل لنعيش مع الله ذلك الاتّصال المليء بالمحبّة ولنؤكّد أوّليّته المطلقة في حياتنا. والصلاة هي أن أضع حياتي الرهبانيّة كلّ يوم، وكلّ صباح، في اتّجاهها الصحيح. وهذا ما دعوتهُ: **البُعد التصوُّفيّ في الحياة الرهبانيّة**.

ن.ج.: وماذا يعني ذلك؟

هـ.ب.: يعني أنّ التصوّف حبٌّ لله مجنون وشغفٌ به مغمور

بالمحبّة. إنّه شيء يمسكني بأحشائي وبأعمق كياني.

ن.ج.: بهذا المعنى، يمكننا أن نرفع صلاةً تدعى صوفيّة في المكتب، وفي القطار، وفي الطائرة!....

هـ.ب.: طبعًا! فإذا ما تملّكنا ذلك الحبّ، لا يعود يتركنا وتصبح الحياة كلُّها متشرِّبة منه ومغمورةً به. وبالتالي، فإنّ النشاطات واللقاءات والأسفار لا تحول على الإطلاق دون الاتّصال الحميم بالله الذي نتذوّقه طوال اليوم كحقيقة قريبة وحاضرة إلى ما لا نهاية. ومع ذلك، فإنّ الصلاة التي لا تتّسم بطابع مجّانيّ، أي تلك التي لا نخصّص فيها بعض الوقت لله وحده، يُخشى أن تنحرف. وإن فقدَتْ حياة الرسول العمليّة الحنين الحقيقيّ إلى الحوار مع الله، يُخشى من الانحراف والانفلات. فعلى الراهب أن يعرف كيف يُلزم نفسه بأوقات مخصّصة للصلاة المحض والمجّانيّة، لا يقوم فيها بأيّ عملٍ آخر. ومع ذلك، قد لا يجد الراهب الوقت في بعض الأيّام ليحتفل بالذبيحة الإلهيّة أو ليقوم بالتأمّل... فليس له أن يضطربْ أبدًا بقدر ما يحتفظ في داخله بالرغبة في إيجاد ذلك الوقت، و«بالحنين» إلى حديث خاصّ مع الله. وإن وجد الوقت في اليوم التالي وغاص في الصلاة ملتذًّا بها، فهذا يعني أنّ غياب الصلاة في الليلة السابقة لم يكن تهرُّبًا. وما دام النشاط لا يعني تهرُّبًا من الحديث الخاصّ مع الله، فلا داعي إلى القلق. غير أنّ الراهب الذي يأتي بكلّ الأعذار المُمكِنة ليتجنّب ساعة الصلاة يجعل حياته الرهبانيّة تفقد معناها كلّه. ولكن، بقدر ما أشدّد على «الحديث الخاصّ» المجّانيّ مع الله، أحذّر من صلاة لا تكون سوى جملة معترضة في أثناء اليوم. إنّ التصوُّف الحقيقيّ هو التصوُّف الذي يغوص في قلب الله فيرى ذلك الاختبار منتشرًا طوال النهار بشكل شعور دائم بالحضور الإلهيّ.

ن.ج.: بهذا المعنى، تشبه الصلاة، إلى حدّ ما، ما يحرّك النهار وسائر الأعمال، والأشخاص الذين نلتقيهم طوال اليوم يغذّون صلاتنا. وكأنّ هناك نوعًا من الحركة الدائمة...

هـ.ب.: أجل، هناك معركة دائمة وجدليّة من الصلاة إلى الحياة

ومن الحياة إلى الصلاة، والواحدة تغذّي الأخرى. فليس هناك انقطاع بينهما، بل إخصاب متبادل. على سبيل المثال، أشعر وأنا أتحدّث إليك الآن بأنّني في عزّ الصلاة. وهذا الحوار الذي نجريه لا ينقطع إطلاقًا عن تأمّلي الصباحيّ، بل «يتواصل» معه. فهناك تواصل حقيقيّ، فالتيّار نفسه يدفع كلّ شيء. وهذا يفترض أن يتخلّى الإنسان عن ذاته. حين كان أحدهم يسأل القدّيس إغناطيوس، مؤسّس الرهبانيّة اليسوعيّة، ليعرف هل إنّ الراهب الفلانيّ هو رجل صلاة، كان يجيب: «لا تسألوني هل هو رجل صلاة، بل هل هو رجل إماتة». علينا طبعًا أن نفهم كلمة «إماتة» في إطار القرن السادس عشر. ولكنّ ما عناه إغناطيوس هو: «هل إنّه رجل متجرّد من ذاته وفقير داخليًّا؟» في الحقيقة: لا تقوم المشكلة على أن نعرف هل إنّ الراهب يصلّي أم لا يصلّي، بل هل إنّه متجرّد تمامًا من ذاته، وفقير تمامًا على مستوى كيانه العميق. فإذا كان كذلك، فهو حتمًا رجل صلاة. ليست الصلاة سوى ظهور التجرّد التامّ عن الذات وتعبير عنه، وهذا ما يجعل الله يمتلك الكيان بكامله، ويتجلّى ذلك التملّك بالتأهّب، والبسمة، والفرح، والسلام، والديناميّة، إلخ. وباختصار، بكلّ العلامات التي يعتبرها القدّيس بولس ثمارًا للروح (غل ٥/ ٢٢). إنّ ذلك التجرّد التامّ وفقر الكيان الجذريّ هما اللذان أدعوهما، في الحقيقة، «التكرّس».

ن.ج.: ألا تتخذ في الواقع ذلك الموقف الذي لا بدّ للمخلوق أن يتّخذه أمام خالقه، أي أن يعي الإنسان أنّه مجرّد خليقة، لا غاية، في حدّ ذاته؟

هـ.ب.: بلى. بقدر ما يتفانى الإنسان كلّيًّا ليكون «انفتاحًا محضًا» و«عطاءً محضًا»، يمكنه أن يعيش تلك الحقيقة.

ولا يجوز أن نحصر ذلك الاختبار في «المكرّس» أو في «الراهب» وحده، لأنّ عددًا كبيرًا من صغار العاملين ومن ربّات البيوت يعيشون بذل الذات بوجه أقوى وأشمل في بعض الأحيان من رهبان كثيرين. . . ولكي أكون صريحًا، أقول إنّني أقتدي أقلّ بكثير بالرهبان الذين يعيشون

حولي ممّا أقتدي بهذا العامل أو ذلك الذي يكنّس الممرّات منذ سنين طويلة، أو بهذه الأمّ أو تلك التي تمضي ليالي كاملة في السهر على ابنها أو على زوجها المريض، ويرافق هذا كلّه بسمةٌ وصبر نادرًا ما نجدهما عند عدد كبير من الرهبان. في الحقيقة، ليس هناك طريقان للوصول إلى الله، بل طريق واحد: هو (طريق) بذل الذات ونسيان الذات. والزواج الذي يعاش بمتطلّباته كلّيا قد يكون أحيانًا مدرسة أكثر تطهيرًا من الحياة الرهبانيّة. فلا يجوز أن نتوهّم كثيرًا وأن نتصوّر أنّنا أفضل من الآخرين. علينا بالأحرى أن نقوم بفعل تواضع لندرك أنّ بعظم العلمانيّين يعيشون التجرُّد أكثر ممّا نعيشه وهو تجرّد عميق جدًّا.

ن.ج.: وهل تعتقد بالفعل أنّ الراهب يعيش عمليًّا دعوته على خطى المسيح في التجرُّد وفي القدرة على بذل الذات؟ وفي نهاية الأمر، ألا يعني تكرُّسه تلك القدرة على التجرُّد؟

هـ.ب.: تمامًا! ولكن قد نميل دائمًا إلى التشديد على أمور أخرى تختلف عن هذا الأمر الأساسيّ. كالتشديد على الصلاة أو على العمل الرسوليّ، أو على المظهر، والعلامات الخارجيّة، وسرعان ما نقع في الفرّيسيّة. إنّ الفرّيسيّة هي أكبر تجربة للراهب. وهي تهدّدنا جميعًا... وهناك تجربة دائمة، وهي أن نحمل أنفسنا على محمل الجدّ، وأن نعتقد بأنّنا أفضل من الآخرين...: «اللهمّ، شكرًا لك لأنّي لست كسائر الناس...» (لو ١٨/ ١١)

قلتُ في مطلع الحديث إنّ الراهب (أو الراهبة) هو إنسان «منفرد»، فيجب أن نفهم هذا القول بمعنى حبٍّ أقوى ممّا نستطيع أن نتصوّره. ليس الراهب منقطعًا لأنّه يعيش على حدة أو لأنّه يعتقد نفسه مميّزًا أو أفضل من سائر الناس. فلا بدّ لنا من أن نتعمّق في عدمنا وفقرنا وتواضعنا، لكي ننجو من تجربة الفرّيسيّة... وذكرتُ قبل قليل أنّني أقتدي بأناس عاديّين جدًّا ألتقيهم كلّ يوم. تقول لي إحدى السيّدات: «لم أنم منذ ثلاث ليالٍ لأنّ ابني مريض». وبعد ليالي الأرق، تتوالى النشاطات اليوميّة بلا رحمة من الصباح حتّى المساء: من تنظيف البيت،

والتسوُّق، والطبخ، وغسل الأواني، وغسل الثياب، والكوي، وفروض الأولاد وحمّاماتهم، ومتطلّبات الزوج ومزاجه السيِّء، إلخ. وأمام هذا المشهد، يأخذني الإعجاب وأنحني إكبارًا! وأعترف بتواضع أنّني عاجزٌ كلّيًا أن أعيش مثل تلك الحياة، وأشعر بأنّني في منتهى الصغر أمام مثل تلك البطولة. وأعتبر أنّني ما زلت في مرحلة بدائيّة. فحتّى لو كنت أخصّص وقتي كلّه للآخرين، فأنا لم أقم إلّا بواجبي. وحين يقول لي أحدُهم: «إنّك تعمل كثيرًا يا أبت...»، أجيب: «ولكنّ هذا أقلّ ما يمكنني أن أقوم به!». قبل أسبوع، لُقّنتُ درسًا في التواضع. فقد حضر أحد الأشخاص إلى مكتبي ليزورني. وفي أثناء الزيارة، توالت الاتّصالات الهاتفيّة، والإمضاءات، والرسائل، واللقاءات، والاجتماعات... فكانت دوامّة حقيقيّة. ظننتُ أنّني أدهشته. فقلت له: «إنّ النمط الذي أتّبعه في المكتب هنا هو غير معقول...» فأجابني: «ولكن، يا أبتِ، ليس هذا بشيء! فما عليك إلّا أن تزورني في البيت لترى كيف أعمل! ... إنّه لأمر مختلفٌ تمامًا! ...». وعلى الفور، ردَّتني تلك العبارة القصيرة إلى تواضعي. فقد تعرَّضت لتجربة أن أحمل نفسي على محمل الجدّ وأعتبر أنّني بطل. وأدركت فجأة أنّ هناك آخرين يتبعون ذلك النمط الصاخب، ولكن بوسائل أقلّ بكثير ممّا لديّ، وبصحّة متلفة بعد عدّة ليالٍ ساهدة، وبدون جميع الوسائل وجيش المعاونين الذين يحيطون بي.

علينا، نحن الرهبان، أن نغوص في تواضعنا، وأن نقول، ونردِّد: نحن عبيد بطّالون، لأنّنا لا نقوم إلّا بواجبنا. وعلينا أيضًا أن نترك عالمنا الصغير، ونخرج من أنفسنا، وننظر حولنا لنكتشف أولئك الناس الذين يعيشون أوضاعًا أصعب بكثير من أوضاعنا.

نحن نتعرَّض دائمًا لتجربة أن نعتبر أنفسنا أشخاصًا في غاية الأهمّيّة، وأنا أوّلهم، ولهذا أقول إنّ إحدى علامات الحياة الرهبانيّة هي النُّكاهة. أجل، إنّ النُّكاهة هي علامة حياة روحيّة سليمة. وأوّل نكاهة

علينا أن نكتسبها هي الفكاهة مع الذات.

ن.ج.: أصِلُ إلى الوجه الأخير، وهو معنى الحياة الرهبانيّة. فهل تعتقد بأنّ الحياة الرهبانيّة ما زالت تحتفظ بمعناها، في نهاية القرن الحاليّ، وهل ترى أنّ لها مستقبلاً؟ فنحن نسمع هنا وهناك أناسًا يقولون إنّ استمرار الحياة الرهبانيّة ليس مضمونًا في عالم يطالب بأنواع أخرى من الخدمات... فكيف ترى مستقبل الحياة الرهبانيّة وما هو معناها الحقيقيّ؟

هـ.ب.: أعتقد بأنّ معنى الحياة الرهبانيّة هو أن تكون نبويّة. والحياة الرهبانيّة التي لا تبقى نبويّة تفقد «كلّ» معنى! إن بدا اليومَ أنّ الحياة الرهبانيّة أُفرغت من معناها، فلأنّها لم تعد نبويّة، وإن لم تعد نبويّة، أمكنها أن تموت موتًا نهائيًا. إنّ زوال رهبانيّة أُفرِغت من جوهرها النبويّ لا يقلقني على الإطلاق. ولكنّي أقلق حتمًا، إن لم تعد الكنيسة نبويّة بمجملها، لأنّ جوهر الكنيسة نفسه يكمن في أن تكون نبويّة، أي في أن تكون منقطعة عن العالم، أي عن روح العالم.

بقدر ما تصبح الرهبانيّات مؤسّسات، بأسوأ معاني هذه الكلمة، تموت، وأنا أسعد لذلك... فإنّ الحياة الرهبانيّة التي لم تعد سوى بناء أو عمارة من القوانين والأنظمة والنشاطات، ليست بحياة رهبانيّة. أحيانًا ما نرى الحياة الرهبانيّة، في أيّامنا، على مستوى «الإنجازات»: من مدارس، ومستشفيات، ومآوٍ، ومؤسّسات اجتماعيّة... هذا كلّه حسن جدًّا، ولكن، هل أنّ تلك المؤسّسات تنادي الناس فعلاً؟ هل هي علامات و نداءات؟ ونحن الذين ينشّطون تلك المؤسّسات، أو يُفترض فيهم ذلك، هل إنّنا علامة استفهام مطروحة على الناس؟... هل إنّ قوّة الإنجيل المحرِّضة ما زالت تدعو الناس اليوم من خلالنا؟ إن لم تكن الحال كذلك، فإنّه يُخشى كثيرًا أن يزول هذا النمط من الحياة الرهبانيّة، لأنّ الشبّان (أو الشابّات) الذين يفكّرون بالتكرّس لا يريدون أن يُدعوا إلى تأمين الاستمرار لمؤسّسات لم تعد تعني شيئًا. وعلى العكس، يمكن أن يشعر هؤلاء الشبّان أنفسهم بأنّهم مدعوّون، بقدر ما تشهد الحياة الرهبانيّة على قوّة الإنجيل المحرِّضة من خلال الرجال والنساء الذين يعيشونها. إنّ

الشابّ (أو الشابّة) لا يختار هذه الرهبانيّة أو تلك بطريقة مبهمة. بل انطلاقًا من الراهب (أو الراهبة) الفلانيّ الذي يشعّ نور المسيح ومحبّته ويجسّد الإنجيل. حينئذٍ، يقول الشابّ: «أريد أن أكون مثله...». والرسل لم يتبعوا يسوع انطلاقًا من برنامج حياة، ولكنّهم تبعوا يسوع انطلاقًا من يسوع. فقد رأوا أنّ ذلك الرجل يجسّد في شخصه مثالًا معيّنًا للمحبّة والحرّيّة، حتّى إنّهم أرادوا أن يتبعوه ويتتلمذوا له. وفي أيّامنا. يحصل الأمر نفسه تمامًا. فبقدر ما نجسّد، أنتَ وأنا، مثال المحبّة والحرّيّة، نولّد عند الآخرين رغبةً في اتّباعنا.

فحين أسمع مَن يتحدّثون عن «رعائيّة الدعوات»، أضحك في سرّي، فعلامَ تقوم «رعائيّة الدعوات»؟ على القيام بالدعاية؟ على طبع مليون منشور عن هذه الرهبانيّة أو تلك؟ على أن نعرّف بمؤسّسات ونشاطات من خلال الصور، وأفلام الڤيديو، والمعارض، والمحاضرات؟... يبقى ذلك كلّه بلا نتيجة إن لم نكن نحترق باطنيًّا، وإن لم نشعّ المسيح فعلًا.

وما يجذب الشابّ (أو الشابّة) هو أن يرى «النوعيّة» البشريّة والروحيّة عند أولئك الذين يؤلّفون جمعيّة رهبانيّة، وأن يكتشف أنّ أولئك الرجال أو النساء يعيشون «بطولة» حقيقيّة. هي المرّة الأولى التي استعمل فيها هذه الكلمة، ولكنّها كانت حاضرة ومستترة في حديثنا كلّه. حين سألتني ما هي الحياة الرهبانيّة، كان بوسعي أن أجيب: **إنّها البطولة الصِرف**، إنّها «**التخطّي**»... **إنّها الإنسان المتفوّق**... فسيكون للحياة الرهبانيّة مستقبل إن كنّا أناسًا من هذه الجبلة. ولا بدّ لنا أوّلًا أن نعيش ملء حياتنا، دون أن نهتمّ كثيرًا برعائيّة الدعوات. وإذا شعر الشبّان بأنّهم مدعوّون، لا بأس، فلأنّ لحياتنا معنًى ولأنّها تلبّي حاجةً. وإن لم يشعروا بذلك، فلأنّنا لم نصب الهدف.

و«ستُزاد» دعواتٍ... إن كنّا أوّلًا ما يجب أن نكون. فلا يجوز أن نسعى لتغذية الآلة الرهبانيّة وتلقيمها بالمحروقات والوقود... وبالرجال

والنساء... «اطلبوا أوّلاً ملكوت الله وبرّه تُزادوا هذا كلّه» (متّى ٦/ ٣٣). لنعِشْ دعوتنا الرهبانيّة بملئها وستُزاد دعوات.

لو كان يعود إليَّ أن أُحرِّك الدعوات، لأخذتُ الشباب إلى الصحراء وجعلتهم يكتوون تحت أشعّة الشمس الحارقة، ولحملتُهم على السير مئات الكيلومترات، والغطس تحت الماء، ولوضعتهم في النار وفي الزيت وفي الجليد... ولأقحمتهم في أعظم المغامرات، الإنسانيّة والروحيّة على السواء، فإن خرجوا منها سالمين، كانوا صالحين ولا شكّ لأن يكونوا مدعوّين حقيقيّين.

إنّ ما يعوِزنا في بعض الأحيان هو أن نعرف كيف نعرض على الشباب مثالاً مستحيلاً. وما دمنا نعرض عليهم أمورًا «ممكِنة»، سيظلّون مشمئزّين، لأنّهم محاطون بكثير من الأمور «الممكِنة» والسهلة. كلاّ، يجب أن نعرض عليهم «المستحيل»، وأمام هذا المستحيل قد يتولّد شيءٌ في نفوسهم.

«ليس الطريق مستحيلاً،
بل المستحيل هو الطريق».

والحياة الرهبانيّة هي بالضبط ذلك الطريق المستحيل، ولأنّه مستحيل، سوف يمكنه أن يجذب ويستهوي.

فني ما يختصّ برعائيّة الدعوات... أُفضّل أن أستصحب الشباب إلى الصحراء لمدّة ثمانية أيّام وأن أدفعهم إلى السير في الوديان عند الظهيرة تحت أشعّة الشمس... وفي ختام الأيّام الثمانية، يكون الشباب قد «تعمّدوا بالروح القدس والنار». وأعتقد أنّ هذا العماد هو الوحيد الذي يستحقّ العناء، أمّا الباقي فهو من قبيل الفولكلور. ذلك بأنّ المقصود هو مساعدة الإنسان على «النفاذ» إلى «ما يفوق البشر». والإنجيل في نظري هو الإنسان الذي يتخطّى الإنسان، ويجتاز الإنسان، ويصل بالتالي إلى ما هو إلهيّ. وأظنّ أنّ الحياة الرهبانيّة هي بالضبط تلك الدعوة النبويّة التي نجدها في الكنيسة.

ن.ج.: إذًا، يرتبط مستقبل الحياة الرهبانيّة إلى حدّ ما بوجود «أنبياء». فبقدر ما يكون هناك أنبياء، يكون للحياة الرهبانيّة مستقبل. ولكن، هل تعتقد فعلًا بأنّ الرجوع إلى مثالٍ أمرٌ هامّ في نظر الشبّان والشابّات؟

هـ.ب.: أجل. إنّ المسيح هو مثال، وأكثر من ذلك، إنّه «المثال» المثاليّ. ولكنّ ذلك المثال قد يكون أبعد بكثير من أن يُخيّم ويستهوي. حين قال القدّيس بولس لأهل فيلبّي: «إقتدوا بي كلّكم معًا» (فل ٣/ ١٧)، ولأهل قورنتس: «إقتدوا بي كما أقتدي أنا بالمسيح» (١ قور ١١/ ١)، لم يقل ذلك تكبّرًا وغرورًا، بل لأنّه كان يشعر بأنّ أولئك الناس محتاجون إلى مثال حيٍّ أمامهم يعكس على طريقته المثال النموذجيّ الذي هو المسيح.

المسيح اليوم هو أنت وأنا.

علينا أن نكون مسيحًا لأهل عصرنا ومحيطنا.

وعلينا أن نجسّد اليوم ما كان المسيح عليه في الماضي. وهذا ما ندعوه «الاقتداء بالمسيح». أي أن أكون مسيحًا اليوم في مصر، في سورية، في لبنان، وفي أيّ مكان آخر مع الناس الذين ألتقيهم أو أعيش معهم. حينئذٍ، تكون حياتي نداءً!

ن.ج.: قيل مؤخّرًا إنّ الحياة الرهبانيّة هي، في نهاية الأمر، المغامرة الأخيرة التي يمكن الإنسان أن يجرّبها. فما رأيك في ذلك؟

هـ.ب.: إنّه قول مثيرٌ للاهتمام!... المغامرة الأخيرة لأنّها آخر مغامرة، مغامرة لا مغامرة بعدها. إنّها في الواقع المغامرة الصحيحة الوحيدة.

لسوء الحظّ، تبدو عبارة «الحياة الرهبانيّة» عبارة منفّخة، لأنّها توحي بإطار ديريّ قديم لا يتماشى مع العصر ومثقلٍ بقرون من المظاهر الشكليّة. وتذكّر الناس بماضٍ سحيق قد يثير عندهم انزعاجًا أو ردّة فعل دفاعيّة. لذا، أريد أن أبدّل السؤال قليلًا لأتحدّث عن البعد التصوّفيّ أكثر

ممَّا أتحدّث عن الحياة الرهبانيّة.

قال الكاتب والسياسيّ الفرنسيّ أندره مالرو: «إمّا أن يكون القرن الواحد والعشرون دينيًّا وإمّا أن لا يكون».

أجل، أعتقد بأنّ المستقبل هو للتصوُّف. فما إن تُستنفَذ وتُستعرَض كلُّ النظريّات العلميّة، والفلسفيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة.... حتّى يكتشف الناس أنّ... المغامرة الحقيقيّة الوحيدة هي الإنسان نفسُه... عمق الإنسان، الإنسان الماضي إلى عمق نفسِه. إنّ كنزنا الحقيقيّ الوحيد هو، في نهاية الأمر، كنزنا الباطنيّ، الكنز الذي نغترفه في ذواتنا، في قدرتنا اللامتناهية على التخطّي والبطولة. إنّ مغامرة المستقبل هي مغامرة الإنسان، المغامرة الإنسانيّة. ومستقبل الأرض يتقرَّر في عمق نفوسنا. والحياة الرهبانيّة تمثّل في ما هو أكثر أصالة لديها، طليعةَ بشريّةِ المستقبل. لذا، ينبغي للحياة الرهبانيّة أن تتّخذ وجهًا جديدًا لتكتشف الأمور الجوهريّة مرّة أخرى. ولهذا السبب، أعتقد بأنّ الحياة الرهبانيّة في المستقبل قد تكون مختلفةً إلى حدٍّ ما عمّا كانت عليه حتّى عصرنا الحاضر. ولا بدّ لها دائمًا أن تعود إلى جذورها وأن تتجدّد وتُنعش وجهها، من دون أن تقع في فخّ الزيّ. فما أشدّ امتعاضي من منظر أولئك الرهبان الذين يريدون بأيّ ثمن أن يبدوا «عصريّين»، فيركبون درّاجات ناريّة ضخمة ويرسلون شعرهم ويرتدون الدجينزات... على الحياة الرهبانيّة أن تعرف كيف تصير «جذّابة» بعيدًا عن كلّ ذلك الفولكلور الخارجيّ.

ويعرف الناس من حولنا أن يميِّزوا تمييزًا صحيحًا بين الصواب والخطأ، بين الحياة الرهبانيّة الصحيحة وكلِّ تزييف لها. فيجب ألّا نتوهَّم. لأنّ الناس ليسوا أغبياء، بل هم يرون بوضوح ما يختبئ خلف وجوهنا وأقنعتنا و«حصوننا»، وطرق عيشنا. لا يمكننا أن نمثّل مسرحيّة القداسة. ولا يمكننا أن نمثّل دور البطل أو «النبيّ»... فإمّا أن نكون كذلك وإمّا أن لا نكون. إن كنّا أبطالًا وأنبياء صادقين، سنجذب

ونسحر. وإن لم نكن كذلك، قد يكرّمنا الناس ويمدحوننا ويقبّلون أيدينا ـ على الأقلّ في الشرق! ـ ولكنّهم لا يفكّرون بأكثر من ذلك في صميم قلوبهم.

ن.ج.: من الأفضل إذًا أن نقول: «إنّ الإنسان هو المغامرة الأخيرة» بدل أن نقول إنّ الحياة الرهبانيّة هي المغامرة الأخيرة.

هـ.ب.: لا بل أقول إنّ الإنسان المتفوّق هو المغامرة الأخيرة، لأنّنا كلّنا مدعوّون لأن نحقّق فينا «الإنسان المتفوّق». لهذا أحببتُ نيتشه كثيرًا. فقد أثّر ذلك الفيلسوف فيّ لأنّه حطّم كلّ المفاهيم وهدم كلّ الأصنام. إلّا أنّه كثيرًا ما شُوّهت دعوتُه إلى «الإنسان المتفوّق» تشويهًا بالغًا وصُوّرت تصويرًا مبسّطاً. وأنا أعتبر أنّ الحياة الرهبانيّة هي البشريّة المتفوّقة، البشريّة التي تتجاوز نفسها. إنّها منذ نحو المستقبل، نحو ما دُعِي الإنسان إلى أن يكون. إنّها دعوة إلى الحرّيّة التامّة، والفرح التامّ، والفرح الفائق البشريّ، والحرّيّة الفائقة البشريّة، والفرح الذي لا يسلبه شيءٌ، والحرّيّة التي تتجاوز كلّ شيء، لأنّها تتجاوز الحرّيّة نفسَها.

والجنس نفسه يتمّ تخطّيه علمًا بأنّه لا يُنكَر، بل يُتبنّى في دائرة أخرى. والغنى أيضًا يتمّ تخطّيه، لأنّه يُدمَج في مشروع أوسع. ذلك هو التحدّي المستقبليّ الكبير. أجل، إنّ الإنسان هو المغامرة الأخيرة، ونتيجتها الإنسان المتفوّق.

مَن يستطيع أن يقول مَن هو الإنسان؟

مَن يستطيع أن يقول ما هو طريق الإنسان؟

مَن يستطيع أن يقول إلى أين يؤدّي طريق الإنسان؟...

لأنّ سرّ التجسُّد يفتح أمام الإنسان أبعادًا لا يمكن توقّعها أو بلوغها، أبعادًا مستحيلة، لا متناهية، فائقة البشريّة، وإلهيّة...

المسيح هو «شاهد البشريّة المتفوّقة في قلب البشريّة»، ومَن يختارون أن يتبعوه يندفعون في أكبر مغامرة ممكنة.

والراهب (أو الراهبة) هو ذلك الشخص الذي حمل على محمل الجدّ، إلى ما لا نهاية، سرَّ التجسُّد الذي يفتح أمام البشريّة مساحات جديدة غير محدودة.

(تعريب أنطوان الغزال)